بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يمثل علم الكلام أهمية خاصة حيث إن موضوعاته هى العقيدة التى هى أساس الدين ، والإنسان حيوان متدين ، وعبر مراحل حياته منذ القدم يلازمه ذلك الشعور الدينى بمعنى من المعانى ، وبعد نزول الأديان السماوية التى أمدت الإنسان بمفاهيم خاصة عن ذلك الشعور الدينى وعالَم الغيب ، إلا أن ذلك لا يمنع العقل الإنسانى من تصور وفهم تلك العلاقة بينه وبين الله ، ومحاولته أن يفهم معطيات الوحى عن الله وعالَم الغيب - وعلى هذا فحركة العقل دائبة فى البحث فى تلك الأمور وفهمها وإثباتها وقبولها - وهذا هو عمل علم الكلام بالنسبة للعقيدة الإسلامية ، أن يحاول إثباتها بإيراد الأدلة العقلية على صحتها ، وأن يدافع عنها ضد المنكرين لها ويبطل دعواهم . وذلك كله بسلاح العقل .

وعلى هذا فالطبيعة العقلية لهذا العلم تعطى مبرراً لوجود الخلاف بين المشتغلين به ، وهذا الخلاف قد يكون بينهم وبين غيرهم المخالفين لهم فى العقيدة ، أو بينهم أنفسهم لاختلاف المدارك والأفهام وتنوع الكسب للعقول من حيث الكم والكيف ، فليست كلها متساوية ، وليست كلها على درجة واحدة من التحصيل ، وقد يكون الخلاف من عصر إلى عصر باختلاف علوم كل عصر وثقافته والتقدم فى كافة مجالات النشاط الإنسانى .

وإذا أضفنا إلى كل هذا أن الخلاف ذاته أمر طبيعى فى الإنسان من حيث الخِلْقة والخُلُق والعقل ، بل لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يمتد ليشمل الكون كله والحياة ذاتها .

ونحن بذلك لا نحاول أن نوجد مبرراً لقيام الخلاف ، بل نقول : إن الخلاف

أمر متوقع وطبيعى ، ويكاد أن يكون ليس فيه عيباً فى ذاته ، بل العيب والنقص ناتج عن حسن أو سوء استخدامنا له ، فهو كسائر الأشياء لا تحمل حسناً أو قبحاً فى ذاتها ، بل يتحدد الحسن والقبح نتيجة لحسن أو سوء استخدامنا لها - وعلى هذا فالخلاف ليس حسناً بإطلاق أو شراً بإطلاق - وقد يوجد الخلاف الذى يوصل إلى الحقيقة ويثرى الفكر ، وقد يوجد الخلاف الذى لا يوصل إلى أية حقيقة ويؤدى إلى التنازع والمخاصمة والفُرقة لأنه يقوم على دوافع ذاتية .

ولقد كان الخلاف سمة رئيسية للمتكلمين ، حيث ساد بينهم ، وشمل كل أفكارهم ، فأنت لا تجد الخلاف بينهم وبين غيرهم فحسب ، بل تجده ظاهراً وواضحا فيما بينهم ، فكل فِرقة منهم تخالف الأخرى ، وكل أصحاب مذهب يخالفون غيرهم ، بل نجده مبثوثاً داخل الفِرقة الواحدة وأصحاب المذهب الواحد .

وإذا كان الخلاف شائعاً بين المتكلمين على هذا النحو ، وإذا كان موضوع بحثهم هو العقيدة ، فإن هذا يجعل للخلاف أهمية خاصة ودوراً خطيراً ، إذ ما يمس العقيدة من قريب أو بعيد ليس بالأمر السهل اليسير ، بل هو عند معتنقيها بالأمر الخطير ، وهذا يُكسب الخلاف بين المتكلمين أهمية خاصة لأهمية موضوعات بحثهم وأنها تحتل مكانة كبيرة عند المؤمنين وذات شأن خطير عندهم .

وهذا أيضا يجعلنا نتساءل : على أى نحو يكون الخلاف بينهم وما هى طبيعته، وأسبابه ، وما هى حقيقته ، فهل تحتمل العقيدة خلافاً بين معتنقيها ؟ أم أن الخلاف لا يتناول أصول العقيدة ويتناول فهم العقيدة وأن ذلك الفهم متغير ، يحتمل الخلاف حوله ؟

إن الخلاف بين المتكلمين يطرح تلك التساؤلات ، ويطرح تساؤلات أخرى ، وذلك لأنه لم يقف عند حد المخالفة فى الرأى بل صاحبته ظاهرة التكفير . وهى ظاهرة خطيرة أيضاً ، إذ أصبح كل فريق من المتكلمين يُكفِّر غيره لمخالفته فى الرأى ، ويُخرجه من جماعة المؤمنين ويحكم عليه بالخروج من الدين ، فمَن يملك ذلك الحق ؟ وبالتالى مَن يملك الحق وحده وغيره يكون باطلاً ؟ وهل بوسع فريق أن يدّعى أن فهمه هو الصحيح وخلافه هو الخطأ ؟

إن الخلاف بهذه الصورة التى سادت بين المتكلمين وأدت إلى نتائج خطيرة ، تجعلنا نتوقف بإزائها ، وقفة تأمل وبحث ودراسة لنتبين حقيقة ذلك الخلاف التى تند مظاهره والموضوعات التى تناولها عن الحصر ، والنتائج التى أدى إليها أدت إلى أن يُكفِّر كل فريق غيره - ومن هنا تأتى أهمية البحث عن حقيقة الخلاف بين المتكلمين .

ولا يقتصر الأمر على تلك الأهمية ، بل يتعداها إلى أن البحث عن حقيقة الخلاف بين المتكلمين يتوافق مع متطلبات الدعوة إلى بناء علم الكلام الجديد - ويُعد ذلك مدخلاً ضرورياً لتصور ما ينبغى أن يكون عليه علم الكلام الجديد ، الذى يخاطب المؤمن المعاصر باللغة التى يفهمها وبالمنهج الذى يُصدِّق به ، ويجيب عن الموضوعات التى تهمه .

ولكى نحقق الهدف من علم الكلام الجديد ، لا بد لنا من العودة إلى ذلك التراث الكلامى القديم ، وتلك العودة لا تبدأ من أُطر جاهزة نصب فيها ذلك التراث أو نتنكر له ، بل نقصد عودة واعية لذلك التراث تقوم على فهمه واستيعابه، ثم عملية الانتقاء والاختيار ، وهذه تمثل مرحلة الحذف والإبقاء على ما هو جدير بالبقاء ، ثم يعقب ذلك عملية الإضافة ، وتنصهر تلك الخطوات بعضها مع بعض لتنشئ لنا علماً جديداً يمتزج فيه الصالح من الماضى والحاضر معاً .

والخطوة الأولى لتحقيق ذلك هى - كما أشرنا آنفاً - الفهم الصحيح والاستيعاب لهذا التراث الكلامى - وهى ما يمكن أن نطلق عليه : العودة الواعية لذلك التراث فهماً واستيعاباً ونقداً له .

والبحث عن حقيقة الخلاف يوقفنا على ذلك ويحقق لنا فهم طبيعة لمشكلات الكلامية وأسبابها ودوافعها وحقيقة الخلاف فيها ، وتلك خطوة ضرورية للحكم عليها ، وبالتالى لتحديد موقفنا من ذلك التراث الكلامى ، وبعبارة أخرى : توفر لنا القدرة الصحيحة على ما نأخذ من ذلك التراث وما ندع وما نحتاج إليه من إضافة معاصرة .

إن البحث بهذه الطريقة سوف لا ينظر إلى التراث الكلامى نظرة مقدسة، بل نظرة علمية فاحصة ناقدة ، فهو من عمل البَشر ومن نتاج عقولهم ، وإجابة على مشكلاتهم ، وعجلة الزمان والتغير لا تكف عن الدوران ، وحركة التقدم والتطور لا تنقطع ، وعلى هذا فلسنا مطالَبين بتكرار ذلك التراث ومشكلاته ومنهجه ، بل مطالَبين أن نفيد منه ، ولكى نفد منه لا بد من معرفة حقيقته .

وتتبع رحلة الخلاف ليست بالأمر الهين اليسير ، إذ أن ذلك يتطلب التعرض لمسائل العلم كلها ولكافة الاتجاهات والبحث عن حقيقة تلك المشكلات وحقيقة الخلاف فيها والتهم التى يوجهها كل فريق لغيره . وهذه المسائل يتصل بعضها ببعض وتتطلب مراجعتها فى مظانها الأصلية ، وذلك يتطلب جهداً شاقاً ، ويستغرق أجزاء عدة للكتاب الذى سوف نتناول فيه ذلك .

❊ ❊

لذا تمثل هذه الدراسة الجزء الأول لهذا الكتاب ، وتتناول عدة موضوعات نعرض لها فيما بعد ، وتُعَد مدخلاً لدراسة حقيقة الخلاف بين المتكلمين ، فهى تتناول معنى الخلاف وبدايته وتطوره ومظاهره وأسبابه ، تمهيداً لمعرفة حقيقته ، أما باقى الكتاب فسوف يصدر فى جزء أو أكثر وذلك بحسب المشكلات التى يتناولها ، بحيث يضم نماذج للمشكلات الكلامية فى كافة الموضوعات الرئيسية التى تناولتها أبحاث المتكلمين ، وهى : المعرفة والعالَم وإثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وصفاته وأفعاله وأفعال العباد والسمعيات ، مركزين على المشاكل الرئيسية محاولين أن نبين حقيقة المشكلة وحقيقة الخلاف فيها ، وهذا أمر ضرورى لمعرفتها معرفة صحيحة .

وهذه الدراسة التى تأتى - كما سبق أن أشرنا - كمدخل لدراسة حقيقة الخلاف ، والتى تمثل المقدمة الضرورية لذلك ، تقع فى ثلاثة فصول رئيسية يضم كل فصل منها مباحث تندرج تحته ، ونعرض لها فيما يلى :

الفصل الأول - معنى الخلاف وبدايته وتطوره :

وعرضنا فيه لمعنى الخلاف وأنواعه ، ثم العلاقة بينه وبين النظر و لمناظرة والحوار والجدل ، وتتبعنا رحلة الخلاف منذ بدايتها أيام النبى عليه السلام ، وكان الخلاف عندئذ حول المسائل العملية الفروعية الخاصة بتطبيق الأحكام العملية أو الاجتهاد فيما لا نص عليه ، ولم يختلف الأمر عن ذلك فى عهد الصحابة بعد موت النبى عليه السلام ، ولم يكن هناك خلاف يتصل بالعقيدة ، وعرضنا لخلافة علىّ وما صاحبها من خلافات سياسية ألقت بظلها على الخلاف حول المسائل المتصلة بالعقيدة .

الفصل الثانى - مظاهر الخلاف :

حاولنا فى هذا الفصل أن نحصر مظاهر الخلاف الرئيسية سواء من حيث الفِرق الكلامية أو من حيث الموضوعات التى اختلفوا حولها ، فعرضنا لذلك من خلال الفِرق الكلامية الرئيسية وهى : المعتزلة والماتريدية والأشاعرة ، فعرضنا للخلاف بين المعتزلة ومتكلمى أهل السُّنَّة وهم الماتريدية والأشاعرة ، وأيضاً للخلاف بين فريقى أهل السُّنَّة - أى بين الماتريدية والأشاعرة ، وأيضاً للخلاف داخل مدرسة المعتزلة ، وذلك لإعطاء نماذج للخلاف الذى لم يكن بين اتجاهين مختلفين فحسب ، بل تعداه إلى أصحاب الاتجاه الواحد ، بل تعدى ذلك إلى أتباع الفريق الواحد .

وأيضاً لم يكن من الممكن حصر جميع أوجه الخلاف لأنها تند عن الحصر ، فاكتفينا بإيراد أهم نقاط الخلاف الرئيسية .

وكان عملنا هو تسجيل نقاط الخلاف دون التعرض لها بالدراسة ، لأن ذلك موضوع الأجزاء الخاصة بدراسة ذلك .

ومعرفة مظاهر الخلاف تفيدنا فى معرفة الموضوعات التى اختلفوا فيها وأهمية تلك الموضوعات تمهيداً لمعرفة حقيقة الخلاف فيها .

الفصل الثالث - أسباب الخلاف :

ولقد عرضنا فيه أسباب الخلاف التى ترجع إلى الاختلاف فى تطبيق المنهج الذى استخدمه المتكلمون ، وإلى طبيعة ذلك المنهج وهى الجدل فعرضنا لمعناه اللغوى والاصطلاحى ، ثم تعرضنا للجدل فى القرآن الكريم بشئ من التفصيل وكذلك تعرضنا لآداب الجدل ، وذلك لأن غرضنا هو مدى التزام المتكلمين بتوجيهات القرآن الكريم فى الجدل واستخدماته ؟ وكذلك مدى التزامهم بآداب الجدل ؟ وعند عرض الجدل عند المتكلمين ، وأيضاً عند عرض أسباب الخلاف المتنوعة ، نستطيع أن نحدد الإجابة عن هذه الأسئلة ، والمقارنة واضحة لا تحتاج إلى ذكر .

ولقد أردنا بالتوسع فى الجدل فى القرآن الكريم أن لا تقتصر دراستنا على معرفة التزام المتكلمين بذلك أم عدم التزامهم ، بل أردنا أن نتجاوز ذلك إلى الإفادة من ذلك المنهج الجدلى فى القرآن وآداب الجدل . حتى نطبق ذلك فى حوارنا وجدلنا وخلافاتنا ، فتلك قواعد ذهبية تضمن حسن الحوار وجديته وتوصلنا إلى تحقيق أهدافه وهى الوصول إلى الحقيقة ، وكذلك تمنع حدة الخلافات بيننا ، فنختلف لكن لا نفترق ، ولا يخاصم بعضنا بعضاً أو نتنازع ونتباعد .

وفى سياق عرض أسباب الخلاف عرضنا للخلاف حول الأدلة النقلية ، وأيضاً للتأويل وما يتعلق به من موضوعات ، حيث إن كل فريق يأخذ من المواقف إزاء هذا كله ما يخدم به وجهة نظره ويبطل به دعاوى خصمه .

ثم عرضنا للأسباب المتنوعة وهى فى مجملها قد ترجع إلى طبيعة العلم ذاته وموضوعاته ، أو للعوامل الذاتية للمتكلم .

ولقد اعتمدنا فى هذا البحث على المصادر الأصلية للمتكلمين ، فرجعنا إلى ما صنَّفوه من كتب ، وأيضاً لبعض الكتب المؤلَّفة عنهم ، ولقد ذكرنا أقوال الخصوم عن خصومهم ، لكن هذا لا يعنى موافقتنا على تلك الأقوال ، وسنعرض

لها فيما بعد عند دراسة حقيقة الخلاف فى هذه الموضوعات ، ولكننا ذكرناها من أجل إظهار نقاط الخلاف واتساع نطاقه ومحاولة كل فريق أن يُلزم خصمه بأقوال لم يقلها بل تؤدى إليها أقواله فى رأيه ، فنحن فى هذه المرحلة فى مجال إظهار الدعوى دون الحكم عليها - لذا أوردنا فى بعض الحالات الاتهامات التى يوجهها كل فريق لغيره مع أنها فى حقيقتها ليست صحيحة ، وهذا ما سوف نبحثه - فيما بعد .

وعلى الرغم من النتائج السيئة لهذا الخلاف بين المتكلمين ، إلا أن له جانباً إيجابياً وإن لم يكن هذا الجانب الإيجابى موضوع بحثنا ، إلا أننا نشير فقط إليه ، فلقد عمل على حيوية الفكر وإثرائه ، ونعيد ما سبق أن قلناه : إن الجدل ليس شراً فى ذاته أو خيراً فى ذاته ، وإن كانت الجوانب السلبية أظهر وأبين ، فإن من الإنصاف أن نعترف بالجانب الإيجابى مهما قلَّ وندر .

وهذه الدراسة تختص بذلك الجانب السلبى للخلاف الذى كان غالباً عند المتكلمين لأننا نهدف إلى معرفة حقيقة الخلاف ومعرفة سلبياته واستبعاد تلك السلبيات ، لذا ننبه إلى أن الخلاف لم يكن سلبياً كله .

ويتزامن صدور هذه الدراسة مع بداية عام جديد وندعو الجميع إلى نبذ الخلاف وأن نختلف ولا نفترق ، وأن نلتزم بالمنهج الجدلى القرآنى الذى يضع قواعد وأسس الجدل والحوار ، وأن يتم ذلك فى أُلفة وحب ، وأن يكون الهدف الوصول إلى الحق والعمل به ، لا أن يقوم على منازلة الخصم ومخاصمته ، فتغيب الحقيقة ، وتحل الفُرقة والانقسام محل الأُلفة والمحبة .

* *

وبعد . . فتلك محاولة متواضعة وسوف تعقبها - إن شاء الله تعالى - محاولات أخرى لنكمل بها تصورنا لما ينبغى أن يكون عليه علم الكلام الجديد ، ومن حُسن الحظ أن تصدر هذه المحاولات على فترات متباعدة ، ليتاح لنا لمزيد من

الاطلاع والبحث وإصلاح الأخطاء التى نرجو من قرائنا الأعزاء أن يهدونا إياها ، فرحم الله مَن قال : « صديقى مَن أهدى إلىَّ عيوبى » ، وهذا العمل شأنه شأن أى عمل إنسانى يعتريه النقص ، ولن يبلغ خطوات فى سبيل الكمال إلا بجهد ومشاركة الناقدين له ، ليصححوا مساره إلى الأفضل والأمثل .

وإننا نؤمن أن بناء ذاتنا الفكرية - والتى يمثل علم الكلام جانباً منها - ليست ملكاً لباحث وحده ولا فى استطاعة باحث أن يقوم بها ، وليست حكراً على اتجاه واحد - إن من حق الجميع أن يشارك وأن يجتهد وأن يُعبِّر كل أصحاب رأى عن رأيهم وكل مفكر عن فكره ، نريد بيئة فكرية صالحة تختفى فيها الأحقاد والخلافات الشخصية ، وأن يتسم الجميع بالروح العلمية ، وأن تتلاقح الأفكار ، وإن اختلاف الوسائل للوصول إلى تلك الأهداف لا يعنى الخصومة والتنازع ، بل يعنى ثراءً فكرياً وتلاقحاً للأفكار ووصولاً إلى الحقيقة .

الجيزة : شعبان ١٤١٤هـ (يناير ١٩٩٤ م) .

د . على عبد الفتاح المغربى

* * *